

## مدينة الكوفة في التراث العربي الاسلامي / رحلة ابن بطوطة انموذجاً

الباحث / عبد الكريم جعفر الكشفي / مدير عام تربية ديالى السابق

المهندس / علي ابراهيم الليلو / مسؤول التعليم الالكتروني في مديرية تربية ديالى

المبحث الأول : الرحلات عند العرب

عرف العرب الرحلة والترحال منذ أقدم العصور ، فساحوا في ارجاء المعمورة بهدف التجارة في المقام الاول ، وقد وردت مفردة الرحلة في القرآن الكريم في قوله تعالى ((لِيَلْبِغَ قُرَيْشٌ ❖ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ))<sup>١</sup> ، حيث ذكر رحلات قريش التي كانت في الصيف والشتاء ، وعندما انتشرت الفتوحات الاسلامية وكبرت مساحة الدولة الإسلامية بدأ المسلمون يسيحون في ارض الاسلام للتجارة أو لحب الاستطلاع وزيادة المعرفة أو لنشر الاسلام وجباية الخراج ، هذا الامر حتم معرفة البلاد والاقاليم ، وعرف العالم الاسلامي كثيراً من الرحالة منهم : سلام الترجمان ، ابن موسى المنجم ، سليمان البراقبي ، ابن وهب القريشي ، ابن بطوطة ، ابن جبير المسعودي ، بزرك بن شهريار ، المقدس بن نوفل ، الأديب ياقوت الحموي وعشرات غيرهم .

لقد ساعدت هذه الرحلات والسفريات في إغناء العلوم التاريخية والجغرافية في المشرق والمغرب على حدٍ سواء ، وكان للنهضة الثقافية الكبيرة التي عرفها المشرق العربي أبان العصور الاموية والعباسية لها امتدادها وثمارها في المغرب العربي الذي عرف نهضة كبيرة في ميدان العلوم كافة<sup>٢</sup> .

لقد كان الرحالة سواءً كانوا عرباً ام غير عرب مسلمين او غير مسلمين ينظرون الى المشرق نظرة احترام وتقدير؛ لأنه مهد العلوم الدينية والفقهية والفلسفية واللغوية والشعرية والفنية .

لقد كان المشرق بالنسبة لكل الرحالة ينبوع العلم ومقر المعرفة ، لذا كثرت عمليات تقليد المشرق بهدف الشوق لنيل رضا الله والمعرفة .

وبعد توسع الدولة الاسلامية وظهور الترجمة والكتابة ايام الدولة العباسية وبشكل واسع ، كان من اهم الامور هي ان يعرف الحاكمون المسالك والممالك والبلاد والاقاليم لغرض جباية الاموال واكتساب المعرفة ، فنشأت كتب الرحلات وظهرت كتب الجغرافية على نمط قريب مما ألفه اليونانيون في هذا المجال.

وفي بداية القرن الثالث الهجري كثر التأليف في الرحلات والمسالك والممالك ووصف الأقاليم والتقسيم ، فكتب رحالة كثيرون وبلدانيون كبار في تلك الامصار وصوروا ما عليها من مدن وانهار وجبال يطول الحديث عنها، ذكروا حال الشعوب وتقاليدهم وعقائدهم ، ووصفوا حال البلدان وطرقها وريفها وما تجنيه من ثمار وخراجها على الوجه الذي تيسر لهم مشاهدته ، فبلغ بعضهم من الدقة والتوثيق حين سجل ما رأى ونقد ما سمع ، فكانوا مرآة عاكسة لما يقام من حلقات العلم والمعرفة في تلك البلدان في عصرهم ، وما يجري ويدور من أخبار وآراء وتوجهات دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

لقد اسهم هؤلاء الرحالة والبلدانيون في رقد المكتبات العربية والإسلامية وإثرائها ، واغناء القراء بما كان غائباً عن حسهم . لقد تجشّم هؤلاء الرحالة عناء السفر ومتاعب الرحلات ومصاعب الطرق ووحشة الطرق في رحلات تستمر احياناً لشهور او سنوات لاجل السياحة ، بل لاجل الحصول على المعلومات من مصادرها الرئيسية بالمشاهدة بأعينهم والسمع مباشرة بلا واسطة من علماء او وجهاء تلك المدن التي يرون بها . لقد كان عملهم هذا مفيداً ومثمراً خاصة في تلك العصور التي كان من الصعب الحصول على المعلومة من مصادرها الاصلية ، وبالرغم مما عانوه من متاعب فقد بقي ذكرهم في التاريخ بانهم تحدوا الصعاب وجابوا البلدان ودونوا كل ما رأوه بأعينهم وسمعوه بأذانهم ، فكانوا بحق يستحقون الشناء الجميل .

إن هؤلاء الرحالة والبلدانيين لم يكتفوا بكتابة ما شاهدوه فقط ، بل حاولوا نقل الصورة المشرقة للمواطن العربي بعاداته وتقاليد ، وكذلك صورة الاسلام المشرق وكذلك ثقافة العرب ولغتهم ونتائجهم الادبي والشعري ، وقد تأثر كثير من اهل المغرب بما تم نقله من قبل أولئك الرحالة البلدانين ، لذا كثرت عمليات تقليد المشرق ، حتى أن ابن دراج القسطلي تأثر بالمتنبي وعارض قصائد ابي نواس والمتنبي ، كما افتخر الاندلسيون بوصف الثعالبي لابن دراج الذي سموه متنبي المغرب<sup>٣</sup> ، هذا في مجال علوم اللغة والادب اما في المجالات الاخرى فهي الأخرى كذلك .

لقد قدّم هؤلاء الرحالون والبلدانيون وصفاً جذاباً عن البلدان التي زاروها ، ممّا جذب إليها السائحين وشجعهم على السياحة والتجوال ، وبينوا كيفية السفر ووسائل النقل المتوفرة ومشاق الطريق ، وكذلك نبهوا الى قطاع الطرق وحذروا من السراق الذين يتحينون الفرص بكل غريب يدخل بلادهم ، كذلك نبهوا الى اخلاق أصحاب المدن التي زاروها ، وحددوا المزارات وقبور الاولياء والصالحين ، وطبيعة الهواء والماء والارض ، ممّا يجعل ما قدموه دليلاً سياحياً لكل سائح او زائر ، ومرشداً الى الاماكن التي ينبغي زيارتها .

كما ان هذه الزيارات قدمت معلومات تاريخية قيمة وخاصة في مجال الجغرافية والعمارة وغيرها . لقد كانت هذه الرحلات عبارة عن سلسلة من المحطات قوامها الزوايا بشكل اساسي وبلاطات الملوك وقصور الامراء ، او الوجهاء وأصحاب النسب الشريف او بمعية افراد يستطيع ان يطلب المساعدة منهم .

لا بد لنا ان نذكر أن المغرب كانت نظرتهم لأهل المشرق نظرة تقديس ، لا سيما العراق ؛ لأنه مهبط الانبياء والرسالات ، والبلد الاول الذي سنت به القوانين واخترعت الكتابة ، وهذا الامر لم يكن معروفاً لا في الغرب ولا في المغرب العربي ، حتى إن ابن خلدون ذكر في مقدمته : (( فالبداوة كانت غالبية على اهل المغرب والاندلس ولم يكونوا يعرفون الحضارة التي لأهل العراق ))<sup>٤</sup> .

إن هذه الرحلات بدأت ضيقة ثم اتسعت على مر الزمن ، فالإنسان ولد راحلاً ، وان اعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال .

لقد كانت هذه الرحلات برية وبحرية ، لكن الاغلب كان يتم عن طريق البر وفي قوافل متنوعة . ان الكتب التي ألفها الرحالون عن رحلاتهم تعتبر من فنون الادب ؛ لانها تكتب بفن القصص والروايات .

لقد عشق العرب الرحلات منذ زمن بعيد ، حتى ان احد الخلفاء حين فتح بلاد المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الارض ، كتب الى حكيم من حكماء ذلك العصر يقول : ((أنا إناسٌ عربٌ قد فتح الله علينا البلاد ونريد ان نتبوء الارض ونسكن

البلاد والامصار فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره التربة والأهواء في سكانها))<sup>٥</sup> ، وهكذا كانت الرغبة من اكتشاف ثقافة الغير تتبلور منذ عصر الفتوحات ، إن أول الرحلات العربية هي رحلة سلام الترجمان زمن الخليفة العباسي الواثق (٨٤٢م) والثانية وهب القرشي (٨٧٠ م) والرحلة الثالثة رحلة ابن فضلان (٣٠٩هـ - ٩٢١م) أيام الخليفة المقتدر ، واعقبها رحلات أخرى .

اما رحلة ابن بطوطة فبدأت سنة ٧٢٥هـ ، ولما كان بحثنا حول ما كتبه ابن بطوطة عن الكوفة ، فلا بد ان نمر ولو سريعاً على حياته ورحلته .

هو محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة ، ولد سنة ١٣٠٤م - ٧٠٣هـ بطنجة ، وهو رحالة ومؤرخ وقاض وفقه مغربي أمازيغي ، لقب بأمير الرحالين المسلمين . خرج من طنجة سنة ٧٢٥هـ ، فطاف بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وتهامة ونجد والعراق وفارس وعمان والبحرين وما وراء النهر والهند والصين وبلاد التتار وأواسط افريقيا ، واتصل بكثير من الملوك والامراء فمدحهم - وكان ينظم الشعر - واستعان بهباتهم على أسفاره .

عاد إلى المغرب الأقصى ، فانقطع إلى السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين فأقام في بلاده ، وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦هـ وسماها (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، ترجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية ، ونشرت بها ، وترجمت فصول منها إلى الألمانية ونشرت أيضا .

كان يحسن التركية والفارسية . استغرقت رحلته ٢٧ سنة (١٣٢٥ - ١٣٥٢م) ، وتوفي في طنجة سنة ٧٧٩هـ ، ١٣٧٧م ، حيث يوجد ضريحه بالمدينة القديمة . تلقبه جامعة كامبريدج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالة المسلمين الوطنيين .

في أول رحلة له ، مر ابن بطوطة في الجزائر وتونس ومصر والسودان وفلسطين وسوريا ومنها إلى مكة . وفيما يلي مقطع مما سجله عن هذه الرحلة:

" من طنجة مسقط رأسي " يوم الخميس ٢ رجب ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤م " معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، منفرداً عن رفيق آس بصحبته، وراكب أكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم. فحزمت أمري على هجر الأحاب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور، وكان والداي بقيد الحياة فتحملت بعدهما وصَباً، ولقيت كما لقياً نصَباً "

ويعد ابن بطوطة أحد أهم الرحالة. قطع أكثر من ٧٥,٠٠٠ ميل (١٢١,٠٠٠ كم)، وهو رقم لم يحصل عليه أي رحالة منفرد حتى ظهور عصر النقل البخاري، بعد ٤٥٠ سنة.

المبحث الثاني / مسجد الكوفة المعظم ومكانته نظرة تاريخية

الكوفة هي البقعة التي بارك الله فيها، فاصبحت بيتاً ومعبداً لعدد كبير من الانبياء والصالحين ، منهم نبي الله آدم وابنه نبي الله شيث هبة الله، وعدد من الطاهرين الصالحين والاولياء، وهي بيت ومعبد نبي الله نوح ، وفيها مرسى سفينته عليه السلام ومنها فار التنور، واليها يحن الانبياء والاولياء والصالحون والمخلصون ، وهي من ضمن البقع التي اشتراها نبي الله ابراهيم الخليل عليه السلام بمائة ناقة وسميت با نقياً وتعني بالارامية با اي مئة ونقياً اي ناقة .

وإثر الفتوحات الإسلامية في العراق وانهزام الساسانيين، تحوّل المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص إلى موضع الكوفة، بعدما أشار سلمان الفارسي على سعد بن أبي وقاص بالتحول إليها، وكانت من أفضل المناطق التي حاولوا الإستقرار فيها، حيث تم تمصيرها وجعلها مصراً، أي: بلداً، وبنى فيها المسجد الجامع، وموضع هذا المسجد هو المكان الذي تحدّثت الروايات عنه بأنه مهبط الملائكة، وحيث خطّ آدم عليه السلام مكاناً للعبادة، وموضع صناعة سفينة نوح عليه السلام، وقد استعان والي الكوفة بعمار بن ياسر، وبأبي الهياج الأسدي، أحد رواة أمير المؤمنين عليه السلام لتخطيط الكوفة، ثم اختطوا المسجد على عدد مقاتلتهم، أي بحدود أربعين ألف إنسان، وبنوا لسعد قصرأ وهو دار الإمارة الملاصق للمسجد والمائلة أطلاله اليوم جنوبه، والذي هو غير شرعي

لانه بني بطابوق حرام حيث هدم سعد ابن ابي وقاص قصر الخورنق والسدير وسرق طابوقه، وقد رفض الامام علي عليه السلام دخول هذه الدار لانها بنيت بطابوق حرام. واصبحت الكوفة محطة المجاهدين ومستقر القبائل، وحلقة الوصل بين المدينة المنورة عاصمة المسلمين والمناطق المحررة، وكانت مركزاً تموينياً للجيوش التي تحارب في الجبهات العسكرية في العراق والمناطق الشرقية، ويعد مسجد الكوفة أحد المساجد الاربعة في الاسلام التي لها قدسية ومكانة روحية كبيرة، و اشار الامام علي عليه السلام اليه بقوله: ((انه احد المساجد الاربعة التي تعظم، ولأن اصلي فية ركعتين احب الي من اصلي عشرة في غيره الا في المسجد الحرام ومسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)).<sup>٧</sup>.

وبقيت بقعة هذا المسجد المباركة منتظرة نور حبيها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حتى تشرفت بتلك الطلعة البهية لتقام في قلبها صلاة الجماعة بإمامة المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حادثة الاسراء والمعراج، وبعد برهة من الزمن جاءت طلائع المسلمين فاتحة بلاد النهرين وارض السواد المباركة ليتم اعادة بناء هذا المسجد المبارك والصرح الالهي العظيم، ولكنه بقى ينتظر بلهفة مقدم امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام لتلامس جبهته الشريفة صعيد ثراه الطاهر ولتعطر هواه بانفاس سيد اولياء الله ووالد الائمة المعصومين وحجج الله على خلقه، حيث نقل الامام علي عليه السلام مقر خلافته اليها، واصبح مسجدها مركز اشعاع لكل المسلمين، ومن على منبره الشريف سمع الناس كلامه وخطبه وارشاداته وتوجيهاته التي صارت دستوراً للمسلمين، وفي محراب مسجد الكوفة تخضبت الشبية المقدسة شبية الامام علي عليه السلام من دماء الرأس الشريف، بسبب الاعتداء الاثيم على الامام علي عليه السلام من قبل الشقى عبد الرحمن بن ملجم عام ٤٠ هـ، حيث انتقل الى دار الخلود، وفقدت الكوفة مركزها القيادي بعد استشهاد الامام علي عليه السلام وسيطرة الشام على زمام الامور، واصبحت الكوفة مصراً بعيداً عن القيادة، وقد اضعفها بصورة اكبر بناء الحجاج بن يوسف الثقفي لمدينة واسط عام ٨٣ هـ. وبوجود الامام علي عليه السلام،

وبفضل عددها وتعدد وظائفها وما كان لها من دور اجتماعي وعسكري وسياسي تربعت الكوفة في قلوب المسلمين .

وبجنب هذا المسجد المقدس بيت أمير المؤمنين وهو من عضادة المسجد اليمنى إلى ساحته والملاصق لمحراب الإمام عليه السلام ، وكان يجنب المحراب باب يمر إلى قصر الإمارة التي لا تزال أطلاله ماثلة اليوم وينتهي إلى بيت الإمام عليه السلام، وهو قريب من دار الإمارة على بعد ٨٥ متراً ، ولا يزال البيت موجوداً وعليه قبة خضراء، وهذا البيت يقصده المؤمنون للتبرك به.

هذا وسوف يكون للكوفة شأن عظيم في قادم الأيام حين يظهر بقية الله الامام الحجة صاحب العصر والزمان ليملاً الأرض بعدله وقسطه ، بعدما ملأها الظالمون ظلماً وجوراً ، وذلك حين يعيد الكرة ويتخذها عاصمة لدولته العالمية كما فعل جده امير المؤمنين ، عندها تعود لها مكانتها من جديد ، ويكون لمسجدها شأن كبير حيث يأتيه المؤمنون من شتى الاصقاع لينالوا اجر وثواب ركعتين يؤدونها فيه حيث تعدل من الثواب ما لا يعلمه الا الله .

ولمسجد الكوفة ابواب خمسة هي:

١- باب كندة: وهي من الابواب المعروفة ، سميت بذلك لانها قريبة من منطقة كندة احدى احياء الكوفة، ومنها خرج الشهيد مسلم بن عقيل حين تفرق الناس عنه، وكانت كل الأبواب تفتح على الرحبة، وهي ساحة يبدو أن مكانها كان بين المسجد وبيت الأمير عليه السلام الذي تقع بجواره الآن أطلال قصر الإمارة .

٢- باب السدة: وهو الذي كان يدخل منه أمير المؤمنين عليه السلام، وموضعه على مقربة من المحراب، ويُفضي إلى بيت الأمير صلوات الله عليه مروراً بجانب قصر الإمارة.

٣- باب الحجة عليه السلام: في الجانب الغربي من المسجد.

٤- باب الثعبان: وهو المعروف الآن باسم باب الفيل: وفي سبب التسمية كما ورد في المصادر المعتبرة هو: بينما أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على منبر الكوفة، إذ ظهر ثعبان من جانب المنبر وجعل يجر ويرقى، حتى دنا من أمير المؤمنين عليه السلام، فارتاع الناس من ذلك وهموا أن يدفعوه عن الإمام عليه السلام، فأوماً بالكف عنه، فلما صار

الثعبان على المنبر رقى إلى المرقاة التي عليها الإمام، ثم قام الثعبان ثم انحنى الإمام على الثعبان، فتناول الثعبان إليه حتى التقم أذنه، فتحير الناس من ذلك وهو يحدثه، فسمع من كان قريباً كلام الثعبان، ثم زال عن مكانه، وجعل أمير المؤمنين عليه السلام يحرك شفثيه، والثعبان كالمصغي إليه، ثم سار الثعبان وعاد أمير المؤمنين عليه السلام إلى خطبته وأتمها، فلما فرغ نزل من المنبر، فاجتمع إليه الناس يسألونه عن حال الثعبان والأعجوبة فيه، فقال عليه السلام: ((ليس ذلك كما ظننتم، وإنما كان هذا حاكماً على الجن، فالتبست عليه قضية وصعبت عليه فجاء ليستفهمها أفهمته إياها، فدعا لي بالخير وانصرف))، وكان الثعبان قد دخل من الباب الكبير الذي يدخل منه الناس اليوم وهو بجهة عكس القبلة، فسمي باب الثعبان واشتهر بذلك، فكره بنو أمية ظهور هذه الفضيلة لأمر المؤمنين عليه السلام، فربطوا في ذلك الباب فيلاً وراموا أن تُتسى تلك الفضيلة، فعرف بباب الفيل .

٤- باب الأتماط : وهو يحاذي باب الثعبان، لكنه سدّ لاحقاً.

٥- باب الرحمة: افتتح في العام ١٩٦٨م.

وكان لكل قبيلة من قبائل الكوفة باب باسمها، لكن بتداول الأيام والحوادث المتعاقبة سدّت الأبواب ولم يبق منها إلّا باب الثعبان وباب الرحمة الذي افتتح حديثاً.

اما مقامات مسجد الكوفة، وهي المواضع التي اتخذها الأنبياء أو الأئمة المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين مكاناً للعبادة والصلاة، فهي كثيرة ومن هذه المقامات:-

١- مقام النبي محمد صلى الله عليه وآله أو مقام المعراج: يقع في وسط المسجد قريباً من المزولة وهي رخامة بحدود مترين كانت وسيلة تحديد الزوال في صلاة الظهر، ويرجح أنه الموضع الذي نزل وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وآله في رحلة الإسراء، كما في الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام.

٢- مقام أمير المؤمنين عليه السلام : وفيه المحراب، وهو في غرفة واسعة، تضمّ مقامي الإمام زين العابدين ونبي الله نوح عليهما السلام، وفيه كان يصلي أمير المؤمنين عليه السلام، وفيه استشهد سلام الله عليه، ومن هنا سمي المكان بالمقام لأنه عليه السلام كان يُقيم صلواته فيه. وكان بجانب المحراب باب يمر إلى قصر الإمارة التي لا تزال أطلاله

مائلة اليوم. وهذا المحراب يتعاهده المؤمنون بالتبرك، وقد نصب عليه شباك من الفضة والذهب المطلي. وقد أنشئ حديثاً بناءً كبيراً في موضع المحراب.

٣- مقام الإمام زين العابدين عليه السلام: وهو عند الأستوانة السابعة، على مقربة من محراب الأمير عليه السلام، ويبدو أن أبا حمزة الثمالي تعرف إلى الإمام في هذا المكان، ففي الرواية عن أبي حمزة، قال: (( دخلتُ مسجد الكوفة فإذا أنا برجل عند الأستوانة السابعة قائم يصلي يحسن ركوعه وسجوده ثم أنفث وخرج من باب كندة)) فتبعه أبو حمزة وسأل أحدهم عنه، فقال له: هذا علي بن الحسين عليهما السلام.

٤- مقام الإمام الصادق عليه السلام: على مقربة من مدخل مرقد الشهيد مسلم بن عقيل.

٥- مقام إبراهيم عليه السلام: في رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام انه عند الأستوانة الخامسة صلى إبراهيم عليه السلام، ويرجح أنه المقام المقابل لباب الثعبان.

٦- مقام الخضر عليه السلام: ملاصق لمقام إبراهيم عليه السلام. وروى الشيخ الطوسي في الأمالي عن الشيخ المفيد أن أمير المؤمنين كان يصلي في مسجد الكوفة، فدخل عليه الخضر، وقبل رأسه ثم شيعه الأمير عليه السلام إلى خارج المسجد.

٧- مقام آدم عليه السلام: وهو قريب من مقام الإمام زين العابدين، وهو مقام وفق الله تعالى فيه النبي آدم عليه السلام للتوبة.

٨- مقام نوح عليه السلام: وهو المقام الملاصق لمنبر الأمير ومحراه.

اما الاماكن الاثرية من غير المقامات فهي :-

١- بيت الطشت أو الطست: هو المكان الذي برزت منه معجزة لأمر المؤمنين عليه السلام في بنت عذباء كانت قد غاصت في ماء فيه العلق، فوَلجت في جوفها علقة، فَمَت وكبرت مما امتصته من الدم، فكبر بطن البنت فحسبها أخوتها حبلى، فراموا قتلها، فأتوا أمير المؤمنين عليه السلام ليحكم بينهم، فأمر بستار فضرب في جانب من المسجد وجعلت البنت خلفه، وأمر بقابلة الكوفة ففحصتها، وقالت: إنها حبلى تحمل جنيناً في جوفها، فأمر عليه السلام بطست من الحمأة - الطين الأسود الذي أصابته العفونة - فأجلست البنت عليه، فأحست العلقة بذفر الحمأة فانسلت من جوفها نحو الطست،

فظهرت بذلك براءة الفتاة، وفي رواية انه عليه السلام مد يده فاتي بقطع ثلج من جبال الشام وجعله تحت الطست فانسلت العلقة<sup>٩</sup>.

٢- دكة القضاء: وهي الدكة التي كان الامام علي عليه السلام يقضي للناس عليها في المسجد ابان عهده عليه السلام.

٣- المزولة: وهي عمود صخري، أقيم وسطه لتحديد وقت زوال الشمس او تحديد صلاة الظهر.

اما المراقد والاماكن المقدسة في الكوفة فهي :-

١- مرقد الشهيد مسلم بن عقيل بن أبي طالب سفير الإمام الحسين عليه السلام لأهل الكوفة، قبل واقعة الطف الخالدة.

٢- مرقد المختار بن أبي عبيدة الثقفي وجيه الكوفة المشهور وأحد وصاحب الثورة الخالدة في الكوفة للاخذ بثأر الامام الحسين واهل بيته واصحابه بعد واقعة الطف الخالدة.

٣- مرقد الصحابي الشهيد هاني بن عروة الذي قتله عبيد الله بن زياد لنزول مسلم بن عقيل في داره لحبه وموالاته للامام علي.

٤- مزار السيدة خديجة بنت أمير المؤمنين عليه السلام.

٥- وهناك مزار آخر فيه قبران ينسبان للسيدتين عاتكة وسكينة ابنتي الإمام الحسين عليه السلام.

٦- مقام الشهيد ميثم التمار: وهو من خيار أصحاب الأمير عليه السلام، الذي قتله ابن زياد صلباً، ودُفن في ذلك الموضع المعروف السبخة، وقدرى جماعة من التابعين عن ميثم التمار وقد حددوا تاريخ استشهاده عام ٦٠ هـ اي قبيل استشهاد الامام الحسين، وقد اشار ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي في رجاله الى ميثم التمار وعده من اصحاب الحسين<sup>١٠</sup>.

ولا بد ان نمر سريعاً على مسجد الكوفة في فترة الامام والعصور اللاحقة لحكم الامام علي عليه السلام، فمسجد الكوفة في زمن خلافة أمير المؤمنين عليه السلام ٣٦-٤٠ هجرية كان مركزاً للحكم ومكاناً للعبادة، ولم يتخذ عليه السلام مقصورةً فيه، كما لم

يحجز بينه وبين من يأتّم بهم شيء، لكنّه اتخذ منبراً للخطابة، وموقعه بجانب المحراب المعروف باسم محراب أمير المؤمنين، كما اتخذ أمير المؤمنين عليه السلام في المسجد دكّة للقضاء، وكانت بجانبها أسطوانة قصيرة كتب عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾<sup>١١</sup>. وعلى هذه الدكّة حكّم صلوات الله عليه في قضايا عديدة تزرخ بها كتب الحديث والمصنّفات التاريخية، وقد بانّت على هذه الدكّة كثير من المعجزات التي أظهرها الإمام عليه السلام، وعلى إثرها أسلم بعض اليهود.

في العصر الاموي المقيت اجريت على المسجد بعض الاصلاحات والتعديلات . وبعد هلاكهم ومجيء سراق الخلافة العباسيين فقد قاموا باستغلال مسجد الكوفة في بداية أمرهم، فجعلوه مركزاً لدعوتهم، فكان يجتمع فيه مناصروهم، وفيه بويح لأبي العباس السفّاح، وجعله بادئ أمره مقرّه ومركز حكمه قبل أن ينتقل إلى مدينة الهاشمية، وفي العصر العباسي الثاني، عني البويهيون بالعبّات المقدّسة، واهتموا بعمارتها وإرسال الهدايا لها، ومنها مسجد الكوفة، وعندما فرغ عضد الدولة البويهيّ من تجديد عمارته، دعا العلماء والأشرف والشعراء إلى حضور افتتاحه، وكان بينهم الشاعر الحسين بن الحجّاج، فأنشد قصيدته التي مطلعها<sup>١٢</sup> :-

يا صاحبَ القبة البيضاء في النجف من زار قبرك واستشفى لديك شفي  
وبعد البويهيين اهتم بعمارته الصفويون والعثمانيون، إلى أن تداعت عمارته القديمة أوائل القرن الثالث عشر الهجري، فأصلح سوره وما فيه من المقامات المرجع الديني الكبير السيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي رضوان الله عليه . وقد شهدت الكوفة ومسجدها المعروف نهضة فكرية ادبية وثقافية قل نظيرها، كما عرفت نحة كبار سطعت اسمائهم في سماء النحو، فبالاضافة الى الكسائي عرف ابو جعفر الرؤاس المتوفى سنة ١٧٥ هجرية، وثعلب المتوفى سنة ١٨٧ هجرية والذي يعد خاتم الكوفيين واخرون لا مجال لذكرهم هنا<sup>١٣</sup>.

المبحث الثالث / الكوفة في رحلة ابن بطوطة

لقد كانت الكوفة مركز اهتمام الباحثين والمؤرخين والكتاب والرحالة، وذلك لما تتمتع به هذه المدينة من مكانة ومنزلة لدى هؤلاء، فلذلك نجد المؤرخين يذكرونها ويسهبون

في الكتابة عنها كالطبري والخطيب البغدادي ، والرحالة يكتبون عنها ويملؤون صفحات كثيرة حولها ، ومن هنا نجد ان ابن بطوطة ، الرحالة المعروف قد ذكرها في رحلاته ، حيث انه مرّ بها ونزل بها أياماً عديدة ، فذكر بعض المعالم والآثار والخصوصيات التي تتمتع به هذه المدينة العريقة .

لقد كانت الكوفة مهمة منذ قدوم سعد بن وقاص اليها وتمصيرها مركزاً اسلامياً مهماً ، ثم اكتملت أهميتها وازداد اشعاعها عندما دخلها أمير المؤمنين واتخذها عاصمة الدولة الإسلامية .

لقد زارها ابن بطوطة وذكرها في رحلته ، وأوضح أهميتها التاريخية في قوله : (وهي احدى أمهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ، ومنزل العلماء والصالحين وحضرة علي بن ابي طالب أمير المؤمنين)<sup>١٤</sup> .

وقد أرتأينا ان ندرس ما كتبه ابن بطوطة ونبوه في أربعة محاور أساسية هي :

أولاً. الجانب الديني والثقافي .

ثانياً. الجانب الاجتماعي والاقتصادي.

ثالثاً. الجانب الحضاري والجغرافي .

رابعاً. إدارة ولاية الكوفة .

أولاً . الجانب الديني والثقافي :

لقد ذكر ابن بطوطة في هذا الجانب اهم الأمور المتعلقة بالتراث الديني ومراقد الاولياء ، وبالأخص سيدهم امير المؤمنين ، وعلى الرغم من عدم تيقن ابن بطوطة في مكان المرقد الشريف لامير المؤمنين ، الا انه ذكر الحضرة وما تتمتع من أهمية ومكانة في نفوس المسلمين ، وما أظهرت من كرامات . يقول الرحالة : ( ثم الحضرة حيث القبر الذي يزعمون انه قبر علي عليه السلام ) . ولفظة "يزعمون" التي ذكرها يرجع الى توهم بعض المؤرخين الذين يعتقدون ان مرقد الأمير عليه السلام في الثوية وليس في الغري ، فان الصحيح هو ان المرقد في الغري ، وذلك حسب التقسيم الذي قام به الباحثون حيث تم تقسيم منطقة ظهر الكوفة جغرافياً الى قسمين هما الغري والثوية ، وان الصحابة

والتابعين الذين نزلوا الكوفة دفنوا في الثوبية ، اما امير المؤمنين عليه السلام فكان مرقد الغري .

ثم يذكر ابن بطوطة الكرامات الموجودة عند اهل الكوفة والزائرين للمرقد الشريف فيقول : ( وهذه الروضة لها كرامات عندهم ، لان بها قبر علي عليه السلام ، فمنها ليلة السابع والعشرين من رجب ، وتسمى عندهم ليلة المحيا ، يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقيين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك ، فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس ، والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومُشاهد للروضة ، فاذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه او نحو ذلك قام الجميع أصحاب من غير سوء وهم يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، علياً ولي الله . وهذا أمر مستفيض عندهم ، سمعته من الثقة ، ولم أحضر تلك الليلة ، لكنني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال : أحدهم من أرض الروم ، والثاني من أصبهان ، والثالث من خراسان ، وهم مقعدون فاستخبرتهم عن شأنهم ، فاخبروني أنهم لم يدركوا ليلة المحيا ، وانهم منتظرون أوانها من عام آخر ) .

يشير ابن بطوطة الى احدى المعتقدات الدينية التي تعتقد بها الطائفة الشيعية ، وهي التوسل بالامام علي عليه السلام لنيل المطالب وتحقيق المقاصد وعلاج المرضى الذين عجز الأطباء عن علاجهم . وهذه العقيدة ليست بدعاً ابتدعتها الطائفة الشيعية ، فقد ورد في القرآن الكريم هذا الامر واجراه على يد الأنبياء كموسى وعيسى عليهم السلام ، فقد جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى على لسان نبيه عيسى { أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ }<sup>١٥</sup> .

ان ليلة السابع والعشرين من رجب هي ليلة المبعث النبوي الشريف ، ويستحب زيارة امير المؤمنين في هذه الليلة حيث يتعذر زيارة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ن فيذهب المؤمنون الى الأمير عليه السلام للتزود وتهيئة الأجواء الايمانية وإعطاء الروح اشعاعات من انوار المرقد الشريف . يقول الرحالة : ( وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ، ويقىمون سوقاً عظيمة مدة عشرة أيام ) .

وفي موضع آخر يشير ابن بطوطة الى النذور التي كانت تأتي الى الضريح من المرضى الذين يتوسلون بالامام وينذرون النذور ويهدونها للمرقد ان قضيت حاجاتهم وعوفوا من البلاء والاسقام والامراض التي أصابتهم . يقول : ( ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذراً اذا برئ ، ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأساً من ذهب أو فضة ويأتي به الى الروضة فيجعله النقيب في الخزانة ... ، وخزانة الروضة عظيمة فيها أموال ما لا يضبط لكثرتة ) .

ان من الميراث الديني لمدرسة اهل البيت وبعض المذاهب الإسلامية الأخرى هو الاعتقاد بالنذور ، فينذرون النذور لوجه الله تعالى ، ويهدون تلك النذور او ثوابها للاولياء والصالحين ، وهذا الامر راجح لا شبهة فيه ولا محذور ديني منه ، لذلك نرى المؤمنين على مر العصور يقدمون النذور والهدايا للائمة والاولياء الصالحين لغايات راجحة كشفاء المرضى او قضاء الحواجج او غير ذلك .

ثم يصف ابن بطوطة أثار المرقد العلوي وقناديله فيقول : ( ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه ، بها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار ، وفي وسط القبة مسطبة مكسوة بالخشب عليها صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل ، مسمرة بمسامير الفضة ، قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء وارتفاعها دون القامة ، وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون احدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام ، والثاني قبر نوح عليه السلام ، والثالث قبر علي عليه السلام .... ، وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب ، يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركاً ) .

ان الحديث عن قبر آدم ونوح فهو من المأثور عن مدرسة أهل البيت ، حيث ورد ذلك في احاديث عدة ، وفي الزيارة المعروفة بالزيارة المطلقة ( السلام عليك وعلى ضجيعيك آدم ونوح ) ، واذا كان هناك شك في قبر آدم ونوح عند القوم ، فهذا من شأنهم ولا علاقة لنا بمبانيهم ونظرياتهم ، فلكل طائفة آراؤها وعلى الجميع إحترام الآراء الأخرى وان كانت مخالفة ، او مناقشتها بعلم وأحترام ، اذ لا ينبغي لاحد فرض آرائه على الآخرين حتى مع الدليل والحجة البالغة ، هكذا علمنا القرآن والرسول واهل بيته ،

حيث ورد في الذكر الحكيم قوله تعالى : { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }<sup>١٦</sup> . ثم ينتقل ابن بطوطة في وصف أبواب المرقد العلوي وستائره فيقول : (وللقبة باب آخر عتبته أيضا من الفضة وعليه ستور الحرير الملون يفضين الى المسجد مفروش بالبسط الحسان ، مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير ، وله أربعة أبواب عتابها فضة ، وعليها ستور الحرير) . لقد اخذ ابن بطوطة يصف المرقد وابوابه بدقة متناهية وذلك لما شاهده من مناظر لم يعهدها في باقي رحلاته ، وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على اهتمام المؤمنين بضريح الاولياء والتقرب منهم واتخاذهم وسيلة الى الله كما امر تعالى بذلك . لقد ضمت الكوفة الكثير من قبور الصحابة والتابعين والحكام والسلاطين الذين تعاقبوا على ولايتها ممن كان له دور إيجابي او سلبي على تلك البقعة الطيبة ، نذكر منهم كميل بن زياد النخعي وأبا موسى الاشعري والمغيرة بن شعبة وزياد بن ابيه وخباب بن الارت وسهل بن حنيف وغيرهم . وقد اندرست أغلب تلك القبور ولم يبق لها أثر ما خلا البعض منها كقبر كميل بن زياد الذي يقع في ظهر الكوفة في المنطقة المسماة اليوم الحنانة . ثم ذكر ابن بطوطة مدرسة النجف والحركة العلمية المؤسسات الفكرية الأخرى فيقول : ( وبازائه المدارس والزوايا والخوانق ، معمورة احسن عمارة ، وحيطانها بالقاشاني ، وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن ) .

ان هذه المؤسسات تعود الى القرن الرابع الهجري ، في عهد عضد الدولة الذي بنى الرواق العلوي الذي اصبح مأوى لطلاب العلم<sup>١٧</sup> .

ويستطرد فيقول ( ويدخل من باب الحضرة الى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ، ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ، ومن تلك المدرسة يدخل باب القبة وعليها الحجاب والنقباء والطواشية ، فعندما يصل الزائر يقوم اليه احدهم او جميعهم وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون عن امركم يا امير المؤمنين ، هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله الروضة العلية ، فإن اذنتم له والا رجع ، وان لم يكن أهلاً بذلك فانتم اهل المكارم والستر ، ثم يأمرونه بتقيل العتبة وهي من فضة وكذلك العضادتان )<sup>١٨</sup> .

ان الزوايا والاربطة تأسست في العهد المغولي الايلخاني .

اما العلماء الذين انجبتهم النجف عند دخول ابن بطوطة لها فكانوا كثيرين ومن ابرزهم السيد حيدر بن علي بن حيدر العلوي الحسيني الآملي والشيخ عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم العتائقي . وكان بعض من تولى نقابة العلويين في النجف والذين أشار اليهم ابن بطوطة في رحلته من الاعلام المؤلفين كالسيد حسن بن تاج الدين الآوي والسيد محمد بن السيد علي بن طباطبا وغيرهم من اعلام مدرسة النجف<sup>١٩</sup> .

ويصف ابن بطوطة بعض المساجد والجوامع وابرزها مسجد الكوفة فيقول عنه : (وجامعها الأعظم جامع كبير شريف ، بلاطاته سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعاً ، ووضع بعضها على بعض وأفرغت بالرصاص وهي مفرطة الطول ، وبهذا المسجد آثار كريمة ، فمنها إزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال أن الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع ، وعلى مقربة منه محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع وهو محراب علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، وهناك ضربة الشقي ابن ملجم ، والناس يقصدون الصلاة به ، وفي الزاوية من هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه أيضاً بأعواد الساج يذكر انه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام)<sup>٢٠</sup> ، ثم يستطرد ابن بطوطة فيقول : (وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون انه بيت نوح عليه السلام ، وأزاهه بيت يزعمون انه متعبد إدريس عليه السلام ويتصل بذلك فضاء يصل بالجدار القبلي للمسجد يقال انه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام ، وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن ابي طالب رضي الله عنه والبيت الذي غسل فيه ، ويتصل به بيت يقال انه بيت نوح عليه عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك كله).

تشير المصادر الشيعية الى وجود مقام إبراهيم الخليل ونوح عليهما السلام ، اما بقية الآثار وبيوت الأنبياء فلا يوجد لها أثر في الكتب المعتبرة ، ولعل المآثور عند الناس في ذلك الحين عن وجود تلك الآثار بما نقل اليهم شفاهة عن آباؤهم وأجدادهم والله اعلم. ثم يشير ابن بطوطة الى قبر سفير الامام الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل بن ابي طالب رضوان الله عليهم ، الذي استشهد قبل واقعة الطف باشهر قليلة ، فيقول : (وفي

الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد اليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن ابي طالب عليه السلام ، وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتا الحسين عليهما السلام).

من المعلوم ان قبر الشهيد مسلم بن عقيل يقع خارج مسجد الكوفة ، كذلك قبر هاني بن عروة وقبر المختار الثقفي ، اما قبور لعاتكة وسكينة فلم تسعفنا المصادر بوجود هذين القبرين في هذه البقعة ، بل هناك قبر لخديجة بنت الامام علي عليه السلام الذي يقع بالقرب من مسجد الكوفة مقابل باب الفيل ، وعليه قبة مكسوة بالقاشي الأخضر .

وذكر ابن بطوطة قصر الامارة الذي اندرست آثاره فيقول : ( واما قصر الإمارة بالكوفة الذي بناه سعد بن ابي وقاص -رض- فلم يبق إلا أساسه ).

لا زالت أسس القصر قائمة حتى الوقت الحاضر ، وهو مجاور بيت الامام علي عليه السلام ، لكنه مطمور في بقعة مهمولة متروكة وسط مياه آسنة .

ثم يذكر ابن بطوطة قبر ابن اليهودية ابن ملجم وكذلك قبر المختار الثقفي فيقول : ( ورأيت بغربي جبانة الكوفة موضعاً مسوداً شديداً السواد في بسيط ابيض فأخبرت انه قبر الشقي ابن ملجم ، وان اهل الكوفة يأتون في كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام ، وعلى قرب منه قبة أخبرت على انها قبر المختار بن ابي عبيدة) <sup>٢١</sup> .

في وقتنا الحالي لا يوجد أي أثر لقبر الشقي ابن ملجم وربما لا يوجد من يعلم مكانه ، فقد اخزاه الله في الدنيا وسينال العذاب الأليم في الآخرة لسوء فعلته التي تجرأ بها على الله ورسوله وعلى امام زمانه ، بينما قبة الشهيد المختار الثقفي عالية تناطح السحاب ، ذلك الثائر الذي ناصر اهل البيت وقام بثورته طلباً لثأر الامام الحسين واهل بيته واصحابه من البيت الاموي واشياعهم واتباعهم الذين غرتهم الحياة الدنيا وفضلوا الحاكم الجائر على الامام العادل ، لذلك يعتبر قبر المختار محل احترام وتبجيل من قبل المؤمنين ، يزورونه من بقاع كثيرة من العالم ويستذكرون بطولاته وتفانيه لنصرة دين الحق والعدل .

ثانياً- الجانب الاجتماعي والاقتصادي :

يصف ابن بطوطة اهل الكوفة من الجانب الاقتصادي والاجتماعي فيقول ( وأهلها تجار يسافرون في الأقطار ، وهم اهل شجاعة وكرم ، ولا يظام جارهم ، صحبتهم في الاسفار فحمدت صحبتهم ) .

لقد كانت تجارة العراق في ذلك الوقت متركزة في بغداد والبصرة والموصل وواسط والنجف<sup>٢٢</sup> ، وكان تجار البندقية وجنوة الذين يقصدون بغداد والبصرة يمرّون بمدينة النجف ، وان الطرق والقوافل التجارية القادمة من سورية تخترق بغداد ثم النجف الى البصرة<sup>٢٣</sup> . ولهذا السبب كان الوضع الاقتصادي لاهالي النجف حسناً والتجارة رائجة ، فأنشئت الأسواق والقيساريات التي قال عنها ابن بطوطة : ( ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة ، فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ثم سوق الفاكهة وشم سوق الخياطين والقيسارية ثم سوق العطارين ) . نستنتج من كلام الرحالة ان أسواق الكوفة كانت عامرة مزدهرة يرتادها الناس بكثرة ، خاصة اذا علمنا انها منطقة سياحة دينية بوجود ضريح الامام علي عليه السلام يقصدها الزوار من شتى بقاع العالم منذ زمن طويل ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، والسياحة بطبيعتها تحتاج الى أسواق كبيرة وزاهرة تضم اكثر السلع الضرورية والكمالية التي يرغب الزائر في شرائها لاجل الهدايا التي يقدمها عند الرجوع الى وطنه .

لقد اشتهر سوق العطارين منذ ذلك الزمن في تلك المدينة المقدسة مما يعني التقدم العلمي والحضاري لأهل هذه المدينة ، لان العطارين يبيعون الأعشاب والعقاقير الطبية ، وربما يعطون وصفات طبية علاجية ، أي ان العطار ربما يكون طبيباً ممارساً يعطي المرضى الدواء الملائم كل حسب حالته .

ثالثاً :- الجانب الجغرافي والحضاري :

وصف ابن بطوطة مدينة النجف الاشرف بقوله : (( فنزلنا مدينة مشهد علي بن ابي طالب عليه السلام بالنجف ، وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً واتقنها بناء )) . هذا واقع حال ارض النجف فهي من احسن مدن العراق واتقنها بناء ، من الطبيعي ان يكون حالها كذلك لان الناس عادة

يستوطنون المناطق التي ينتفعون من نعيمها وخيراتها ، فالعطاء الذي منحهم إياه مدينة النجف بوجود ضريح الامام علي وكثرة الزائرين وانتعاش الأسواق جعل من أهلها أصحاب تجارة رائدة ، بالإضافة الى خصوبة الأرض وامتهان أهلها مهن الزراعة والصناعة القديمة جعل الكثير من أهلها اغنياء ، فانعكس ذلك على البناء والعمارة والبيوت ، فكانوا يتفننون في زخرفة المباني والقباب للاولياء والصالحين ، وكانت بيوتهم من الطرز المتطورة آنذاك .

لقد كانت النجف مسورة ولها قلاع وابواب ، اذ كان لها سور يحيط بالمدينة وللور بابان هما : باب السلام الكبير ، وباب عبد الحميد النقيب بن أسامة<sup>٢٤</sup>.

ان هذا السور يمثل حالة متطورة في العمران ، إضافة الى الحنكة التي يتمتع بها صاحب فكرة بناء هذا السور ، حيث يعد السور حصناً واقياً من مؤامرات الأعداء ، خاصة وان مدينة النجف خصوصية كبيرة تزيد أعداء اهل البيت غيظاً وحسداً فليجأ هؤلاء الأعداء بين فترة وأخرى للاغارة على المناطق المقدسة بغية طمس تلك المعالم التي لا يطيقون السماع بوجودها ولا يطيقون بقاءها . ان هذا السور ربما يشبه سور الصين الذي بناه الانسان الصيني لدرء الاخطار ، لكن الفرق ان سور الصين اطول بكثير .

وقد لاحظ ابن بطوطة في الكوفة المواضع التاريخية والاثريّة والحضارية ، الا ان بعضها قد أصيب بالخراب بسبب الاعتداءات المتكررة ، يقول الرحالة : (الا ان الخراب قد استولى عليها بسبب ايدي العدوان التي امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها ، فانهم يقطعون طريقها)<sup>٢٥</sup> . ويصف بناءها واسواقها بالقول : (وبناؤها بالآجر ، واسواقها حسان ، وأكثر ما يباع فيها التمر والسّمك) .

رابعاً :- إدارة ولاية الكوفة :

خضعت مدينة النجف الاشرف وما حولها للمغول وذلك بعد سقوط بغداد على ايدي هولاء عام ٦٥٦هـ ، فأرسل هولاء مائة جندي مغولي لحماية مرقد الامام علي عليه السلام والسكان القاطنين حوله<sup>٢٦</sup> . وكانت إدارة المدينة وما حولها يديرها نقيب العلويين بتفويض من الحاكم المغولي في بغداد ، يقول ابن بطوطة : (وليس لهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال ، وانما يحكم عليهم نقيب الاشراف)<sup>٢٧</sup> .

لقد كانت للحنكة والذكاء عند علماء الطائفة الشيعية وبالأخص الشيخ الطوسي دور عظيم في استمالة المغول والحد من قسوتهم ، بل وتغيير نظرتهم للشعوب ، ورغم التزوير الذي احدثه المؤرخون في تشويه صورة الشيعة وعلمائهم حول مزاعم عمالة الشيعة والشيخ الطوسي للمغول ، فان الواقع غير ذلك ، لان الصدام العسكري مع قوات كبيرة غازية مدججة بالسلاح كان امراً غير ممكن لاسباب كثيرة منها تردي الوضع الاقتصادي والمعاشي لاغلب طبقات المجتمع الإسلامي في أواخر العصر العباسي ، وامنياتهم ودعائهم بزوال الحكم وان كان على يد الأجنبي المحتل لما تولد في نفوسهم من شعور بالإحباط من الإدارة الفاسدة التي حكمت البلاد الإسلامية في العهد العباسي ، وعدم استعدادهم لمقارعة أي عدوان تتعرض له البلاد الإسلامية ، لانهم ان واجهوا الاحتلال سيكونون هم الضحية ليقى الحكم الفاسد والجائر في الحكم ويبقى الخليفة العباسي يتربع على عرش الخلافة متأمراً على العباد مستولياً على رقابهم ومتحكماً في مقدراتهم . فاستخدم الشيخ الطوسي الأسلوب الصحيح في احتواء المغول ، لذلك جعلوا إدارة المدن التي يقطنها الشيعة بأيدي النقباء والوجهاء والعلماء ، ومنها مدينة الكوفة ، فاصبح نقيب الاشراف يتولى إدارة شؤون تلك المدن التي شملت النجف والكوفة وكربلاء والحلة ، فالنقيب يجمع بشخصيته الصفة الدينية والاجتماعية وكذلك الصفة الإدارية ويشرف على المرقد العلوي وخزائنه ، فهو اذاً بمثابة الحاكم على تلك المدن والولايات بتفويض من الحاكم في بغداد .

يقول ابن بطوطة : ( ونقيب الاشراف مقدم من ملك العراق ، ومكانه عنده مكين ومنزلته رفيعة ، وله ترتيب الامراء الكبار في سفره ، وله الاعلام والاطبال ، وتضرب الطبلخانة عند بابه مساءً وصباحاً ، واليه حكم هذه المدينة ، ولا وال بها سواه ، ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره )<sup>٢٨</sup> .

وذكر ابن بطوطة بعض النقباء الذين استلموا زمام إدارة المدن منهم :

١- نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوي .

٢- جلال الدين بن الفقيه .

٣- قوام الدين بن طاووس .

- ٤- ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح شمس الدين الابهري
- ٥- أبو غرة بن سالم بن مهنا بن جماز الحسيني المدني .
- هذا وقد رمنا الاختصار في بحثنا الذي ركزنا فيه على النقاط الأساسية ، وتركنا التفاصيل تجنباً للاطالة .
- الخلاصة والخاتمة :-
- بعد هذا السرد الموجز عن أحوال الكوفة في رحلة ابن بطوطة الشيقة والتي اغنتنا كثيراً بما سجله من معلومات ربما غابت عن بعض الناس ، يمكننا ان نستنتج النقاط الآتية :
- ١- كانت الكوفة ولا زالت المدينة المعطاة التي تزخر بالعلم والادب وبقية فنون المعرفة منذ تأسيسها ولحد الآن .
- ٢- مما جعل لهذه المدينة العتيقة هذا المقام السامي وهو تشرفها بمقدم امير المؤمنين عليه السلام واتخاذها عاصمة لدولته الكريمة .
- ٣- كانت الكوفة موضع اهتمام الائمة بدءاً من امير المؤمنين الذي جعلها عاصمة ومحط انطلاق تحركاته وجيشه ، ثم جاء من بعده ولده الامام الحسين ، عندما أراد ان ينطلق بثورته العالمية منها لولا ان منعه الجيش الاموي من ذلك ، وتبعه بعده أصحاب الثورات كثورة التوابين والمختار الثقفي .
- ٤- رغم الحقد الدفين لهذه المدينة من قبل حكام الجور ومحاربتها بكل الوسائل ، الا انها صمدت وبقيت تشع بعلمها وعلمائها ومدارسها لكافة بلاد المسلمين على مر العصور .
- ٥- هذه المدينة تستحق الدراسة والبحث لانها موضع اهتمام الأنبياء والائمة ، حتى انها يوم الفتح الأعظم تشرف بالطلعة البهية للامام الثاني عشر ويجعلها مرة أخرى عاصمة لدولته الكريمة بعد ان هجرها الحكام .
- ٦- الاثار الموجودة فيها والمعالم الدينية وقبور واضرحة الاولياء والصالحين يتطلب من الدولة الاهتمام بها ورعايتها وجعلها مرفقاً سياحياً يليق بمكانتها .
- ملخص البحث :-

نظراً لاهمية الكوفة ومكانتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على مر العصور ولكونها تشرفت عندما اتخذها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عاصمة لحكومته بعد الانتقال من المدينة إليها، واستشهاده عليه السلام في مسجدها ، وكانت الكوفة - كذلك - تمثل المركز الرئيسي لطلبة العلم قديماً وحديثاً ، ومركزاً مهماً من مراكز التشيع ، وفيها أماكن تاريخية وأثرية كبيرة تحظى باهتمام المسلمين جميعاً ، ففي تلك المدينة مسجد الكوفة ومسجد السهلة ، كما ان الإمام الصادق عليه السلام رأس مذهب اهل البيت قد ألقى رحله فيها مدة سنتين، كل ذلك دفعنا للكتابة عن هذه المدينة العريقة العتيقة .

في القرن الرابع عشر الميلادي ، حين قام الرحالة ابن بطوطة بجولته في العالم الإسلامي، اكتشف الكوفة حين وصل إلى الجنوب ما يسمى اليوم بالعراق ، وهي التي أسسها في الأصل أبناء قبائل جنوب الجزيرة العربية ، لا سيما اليمانيي الأصل منهم، أولئك الذين قصدوا بلاد السواد في جيوش الفتح وأرادوا الاستيطان فيها بعد الفتح .

يعتبر أدب الرحلة من أقدم أنواع الأدب المعروفة عند العرب، وقد اهتموا بهذا النوع من الأدب اهتماماً واضحاً، فتم تسيير العديد من الرحلات الاستكشافية للتعرف على المناطق والبلدان المحيطة بهم ، ويعتبر كل من الإدريسي والمسعودي وابن فضلان وابن جبير وابن بطوطة من أبرز الرحالة الذين ذكرتهم كتب الرحلات ، وابن بطوطة هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي، ولد في مدينة طنجة في شهر رجب من عام ٧٠٣ هجرية ( ١٣٠٤ ميلادية )، بدأ رحلته في يوم الإثنين الثاني من شهر رجب لعام ٧٢٥ هجرية ( ١٣٢٥ ميلادية )، وخلال هذه الرحلة زار كلاً من سومطرة والهند وبلاد العجم، ثم العراق ( والكوفة من ضمن مدنه) ثم الشام، ومصر، ومكة وانتهت رحلته هذه في عام ٧٥٤ هجرية .

توفي الرحالة بطنجة في عام ٧٧٩هـ/١٣٧٨م بعد ان زار ٤٤ بلداً، وكان الرحالون يهتمون بتوثيق رحلاتهم، وكتابة القصص التي حصلت معهم في الأماكن التي ذهبوا لها وزاروها ، ومنهم من اهتم بجغرافية تلك الأماكن ، فعمل على رسم الخرائط التي تقدم وصفاً للتضاريس الجغرافية التي تعرفوا عليها .

أن الكوفة هي المدينة التي كان يتشوق لرؤيتها والتجوال فيها الكثير من الرحالة والبلدانيين ، أكثر من أية مدينة أخرى في العالم الإسلامي ، فالكوفة تمثل بامتياز تاريخ الحضارة الإسلامية في أقدم تعابيرها وأهمها ، والتي يحكى عنها الكثير ويعرف عنها القليل من حيث حياتها النابضة التي تتراءى في آخر المطاف مشيرة للخيال ، وكانت في حقيقتها خزانة حضارة لا تضاهيها أية مدينة أخرى ، ومن المهم أن نقول هنا أنها وصلت عبر تطور اللغة وحفظ الأشعار والتلاقح بين الكوفيين والأعراب إلى استعادة ذلك الإرث والحفاظ على جذوره العربية . أن في تاريخ الكوفة كل المقدمات التي تشير إلى الولادة الخالصة للمدينة الإسلامية التي تولد لضرورات عملية من دون أن تقوم على بنیان سبقها .

تكمن الأهمية العلمية لبحثنا في بيان اهمية الكوفة في رحلة ابن بطوطة ورفد طلبة المعرفة ببحوث تفتقر إليها ، كون الرحلات تراث جغرافي ، وممن كتبوا فيها كانوا على اطلاع ودراية ميدانية وهم يتميزون بمعرفة كبيرة ويمثلون تراثاً جغرافياً وتاريخياً ضخماً ، لم يطلع عليه إلا القليل ، ومن هنا كانت اهتماماتنا بهذا الموضوع.

الهوامش:

١- قريش : ١-٢

٢- رحلة ابن بطوطة / ابن بطوطة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ٢٠١١م ، ص: ٥

٣- تاريخ الادب الاندلسي / د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٥م ، ج ١: ص ٣٨

٤- المقدمة / ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٨م : ص ٤٤٩ .

٥- السياحة الدينية في العراق ، محمد الكرخي ، مشروع بغداد عاصمة الثقافة الاسلامية ٢٠١٣ : ص ٣٥

٦- السرائر الحاوي التحرير الفتاوي / ابو جعفر محمد بن ادريس الحلبي ت ٥٩٨ هـ ، مؤسسة النشر

الاسلامي ، قم المقدسة ١٤١٠هـ ، ج ١ : ص ٤٧٩

٧- مسجد الكوفة في التاريخ / د. حسين امين ، مجلة الكوفة ، العدد الخامس ، ٢٠٠١م : ص ٤٠

٨- الكوفة بين البعد التاريخي والتطور العلمي / د. حسن عيسى الحكيم ، العارف للمطبوعات ، النجف

الاشرف ، ٢٠١١م : ص ٩٨

٩- مفاتيح الجنان المعرب / عباس القمي ، تعريب السيد محمد رضا النوري النجفي ، دار اليوسف

بيروت - لبنان ، د.ت : ص ٣٨٨

١٠- الرجال / ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هـ ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦١م  
ص: ١٥١

١١- النحل : ٩٠

١٢- الكنى والالقب / عباس القمي ، المطبعة الحيدرية ، النجف الاشرف ١٩٥٩م ، ج ١ ص ٢٥١

١٣- المسجد الجامع في الكوفة التاريخ والهوية والدور الكبير / السيد عبد الامير المؤمن ، مركز هاني بن  
عروة للدراسات ، الكوفة ٢٠١٣م : ص ١٧٤

١٤- رحلة ابن بطوطة : ج ١ ، ص ١٣٧

١٥- آل عمران : ٤٩

١٦- سبأ : ٢٤

١٧- علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي / ناجي معروف ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٧١م  
، ص : ٢٤١

١٨- رحلة ابن بطوطة : ص ١١٠

١٩- الكوفة بين العمق التاريخي والتطور العلمي / مصدر سابق : ص ١٤١

٢٠- رحلة ابن بطوطة : ج ١ ، ص ١٣٧

٢١- ابن بطوطة / ج ١ : ص ١٣٨

٢٢- العراق في عهد المغول الايلخانيين ، خصبك ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٨م : ص ١٣٥

٢٣- المراجع في النجف / موسوعة العتبات المقدسة ، جعفر الخياط ، دار التعارف - بغداد ، ج ١  
ص: ٢٠١

٢٤- فرحة الغري في تعيين قبر امير المؤمنين علي بن ابي طالب في النجف / ابن طاووس ، المطبعة  
الحيدرية ، النجف الاشرف ١٣٦٨هـ : ص ١٣١

٢٥- الرحلة : ج ١ ، ص ١٣٧

٢٦- جامع التواريخ / رشيد الدين الهمداني ، دار احياء الكتب العربية ، ج ١ : ص ٢٩٦

٢٧- رحلة ابن بطوطة : ص ١١٠

٢٨- رحلة ابن بطوطة : ص ١١١

المصادر :

- القرآن الكريم

١- تاريخ الادب الاندلسي / د. احسان عباس دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٥م

٢- جامع التواريخ / رشيد الدين الهمداني ، دار احياء الكتب العربية

- ٣- الرجال/ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هـ، المطبعة الحيدرية النجف، ١٩٦١م
- ٤- رحلة ابن بطوطة / ابن بطوطة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ٢٠١١م
- ٥- السرائر الحاوي التحريير الفتاوي/ ابو جعفر محمد بن ادريس الحلي ت ٥٩٨ هـ ، مؤسسة النشر الاسلامي، قم المقدسة ١٤١٠هـ
- ٦- السياحة الدينية في العراق / محمد الكرخي ، مشروع بغداد عاصمة الثقافة الاسلامية ٢٠١٣م
- ٧- العراق في عهد المغول الايلخانيين / خصباك ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٨م
- ٨- علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ، ناجي معروف ، مطبعة الارشاد / بغداد ١٩٧١م
- ٩- الكنى واللقاب/عباس القمي، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٥٩م ،
- ١٠- الكوفة بين البعد التاريخي والتطور العلمي/د.حسن عيسى الحكيم،العارف للمطبوعات،النجف الاشرف، ٢٠١١م
- ١١- الكوفة بين العمق التاريخي والتطور العلمي / د.حسن عيسى الحكيم ، شركة العارف للمطبوعات للمطبوعات ، النجف الاشرف ٢٠١١م
- ١٢- المسجد الجامع في الكوفة التاريخ والهوية والدور الكبير/السيد عبد الامير المؤمن،مركز هاني بن عروة للدراسات،الكوفة ٢٠١٣م
- ١٣- مسجد الكوفة في التاريخ / د.حسين امين،مجلة الكوفة، العدد الخامس، ٢٠٠١م
- ١٤- مفاتيح الجنان المعرب/عباس القمي، تعريب السيد محمد رضا النوري النجفي ، دار اليوسف بيروت لبنان ، د.ت
- ١٥- المقدمة/ ابن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٨م
- ١٦- المراجع في النجف / موسوعة العتبات المقدسة ، جعفر الخياط ، دار التعارف - بغداد.